التداخل المصطلحي في الخطاب الصوفي
مذيل ب "قاموس المشترك في اللغة الصوفية"
أو "نحو القلوب الأكبر"
للدكتور خالد اليعبودي

قراءة نقدية للأستاذ: جمال والزين

صدر عن دار النشر أميمة بفاس كتاب "التداخل المصطلحي في الخطاب الصوفي" لمؤلفه الدكتور خالد اليعبودي. ويقع هذا الإصدار في طبعته الأولى 2014م في 243 صفحة من الحجم المتوسط. ويضم الكتاب قسمين رئيسيين[1]: القسم الأول يضم فصلين بالإضافة إلى مدخل وتقديم وخاتمة. والقسم الثاني (قسم القواميس) عبارة عن قاموس بذيل الكتاب يضم تعريفات للمصطلحات الصوفية المشتركة بين أقطاب التصوف وأئمة أهل اللغة مأخوذة من كتابات أشهر العارفين من أهل الطريق، بالإضافة إلى قاموس للمصطلحات المشتركة بين نحو اللغة ونحو الإشارة كما وردت عند الإمام القشيري في "نحو القلوب"، ناهيك عن ثلاثة ملاحق للبحث.

تضمن المدخل والتقديم في القسم الأول حديثا عن التجربة الصوفية ومصطلحاتها، وما يميزها عن غيرها من مصطلحات العلوم والفنون. ويمكن إجمال سمات المصطلحات الصوفية في ما يلي:

✓ أنها وليدة تجربة سلوكية جهيدة ترجم من خلالها رجال التصوف أسرار مكنوناتهم ونتاجات أذواقهم. ولأن التجربة الصوفية مرتبطة بالكشف الرباني الذي خص به عباده المخلصين، فإن اللغة العادية عاجزة عن استيفاء مضامين التجربة ودقائق كشوفات المتصوفة، لذلك جاء المصطلح الصوفي متميزا عن بقية مصطلحات العلوم والفنون، إنه "نتاج للكشف والتجلي، فهو مستخلص من المعرفة القلبية، إذ لا يلجأ الصوفي إلى العقل إلا لترجمة

---

[1] لم يعتمد الباحث هذا التقسيم بهذه الحرفية إذ لم يضع عنوانا اسمه القسم الأول وآخر اسمه القسم الثاني، لكن لما سمى الشطر الثاني من الكتاب بقسم القواميس ارتأينا أن نقدم الكتاب بهذا التقسيم: قسم أول يضم فصلين، وقسم ثان يضم القواميس.

مشاعره الوجدانية في صيغة إشارات بينما بقية مصطلحات العلوم والفنون نتاجٌ لإعمال الفكر والنظر العقلي"[2].

✓ تعدد مشارب وصور المنظومة المصطلحية الصوفية، مما تولد عنه اشتراك اصطلاحي يشكل علامة بارزة على التداخل المصطلحي القائم بين العلوم الإسلامية، وصورة بيانية راقية تعبّر عن أغوار أسرار الكتابة الصوفية، تمكّن من تتبّع العلاقات القائمة بين العبارات والألفاظ من جهة والمعاني السامية التي تمثل الحقائق الذوقية من جهة ثانية[3].

ولعل المتصفح للمنظومة المصطلحية الموظفة في الخطاب الصوفي، يجد رصيدا من المصطلحات الرحالة (les concepts nomades) وهي مبثوثة في مختلف متونه النثرية والشعرية والقاموسية[4].

من هذا المنطلق يسعى الباحث خالد اليعبودي إلى الوقوف على نوعية الخطاب الصوفي وتنوع مشاربه الثقافية وموارده المعرفية انطلاقا من النظر في الإشكالات التالية:

-ما مميزات اللغة الصوفية؟

-وما دواعي رمزيتها الموغلة في الإيحائية؟

-ما الصلة بين مجاهدات المتصوفة ولغتهم الرمزية؟

-وما هي روافد المصطلح الصوفي ومناهله المعرفية؟

-هل تقتضي وراثة الفكر الصوفي ضرورة استلهام الاصطلاحات بعوالمها الدلالية الخاصة؟

-أين تتجلى ظاهرة "امتداد المعنى" في الاصطلاحات الصوفية المقتبسة من القطاعات المعرفية الأخرى؟ وكيف نسبر أغوار سماتها الدلالية؟

حاول الباحث مقاربة هذه الإشكالات في فصلين:

الفصل الأول:

خصص الكاتب الفصل الأول للحديث عن مميزات اللغة الصوفية، وتناول مجموعة من القضايا المرتبطة بلغة التصوف ومصطلحاتها، نلخص أهمها في ما يلي:

---

[2] ص: 3

[3] ص: 2

[4] ص: 5

1- المزج بين الإشارة والعبارة:

تتميز اللغة الصوفية بالمزج بين الإشارة والعبارة بغرض تبليغ مقاصد أهل الطريق للجمهور المتلقي بطبقاته المختلفة باختلاف درجات الإدراك والإشراق. وارتبطت معظم الإشارات لدى المتصوفة بما نعت في الدرس البلاغي ب"المعاني المجازية" التي لا يكشف عن معناها الحقيقي إلا أصحاب الأحوال. وقد توقف الباحث عند دوافع الرمزية في الخطاب الصوفي، ويمكن إجمالها في ما يلي:

✓ قصور اللغة العادية عن استيفاء وصف مقامات المتصوف الباطنية، مما يضطره للجوء إلى "الرمزية" للتعبير عن أحواله ومقاماته الباطنية التي لا تخضع للعقل والمنطق، ذلك أن اللغة الكلامية (العامة) كما يقول الكاتب الألماني "وليم هنريش فاكنرودر" (Wilhelm heinrich Wackenroder) لا يمكن أن تعبّر إلا عن العقلاني، والأرضي، والمرئي.

✓ تجنب المتصوفة لهجوم "أهل الرسوم" ممن يشككون في مصداقية طريق الذوق والكشف في الوصول لحقيقة.

✓ تفادي فتنة الذات والغير؛ ففتنة الذات تفضي إلى هلاك النفس، لذلك نبّه أرباب التصوف من مغبة كشف أسرارهم مخافة التهلكة، واستدل أرباب الأحوال بأدلة نقلية وعقلية على ضرورة كتمان الأسرار الإلهية، وفتنة الغير تفضي إلى الضياع والوقوع في تيه التأويل المُجانب للحقيقة. وقد لجأ المتصوفة إلى الرمز غيرة على طريق أهل الله.

✓ المعاناة من جراء ملاحقة الواردات، فيكون الغرض من التعبير والكتابة التنفيس من شدة وقع التجليات الإلهية على قلوب العارفين.

2- التأرجح بين مستويات الإبانة والتواصلية:

وهذا التأرجح ناتج عن اختلاف مصادر اللغة الصوفية بحسب الأحوال، ذلك أن لغة العارفين الموجهة للمريدين تمتح من وحدات اللغة العامة، ومن متون النصوص المقدسة، ومفاهيم العلوم الاسلامية، مما يجعلها واضحة جلية، لكن لغة أهل الأحوال لحظة بلوغ أوج الانفعال بعيدة عن هذه المصادر مما يجعلها "لسانا ملغزا" بتعبير دي سوسير أو "لغة شطح" أو "لغة سريانية" باصطلاح المتصوفة. وهي لغة الأرواح التي يتخاطب بها الأولياء من أهل الديوان فيما بينهم، لاختصارها وتملكها المعاني الكثيرة التي لا يمكن أداؤها بلغة أخرى.

3- نشأة المصطلح الصوفي ومراحل تطوره:

توقف الباحث عند إرهاصات المصطلح الصوفي ومراحل تطوره، ولخصها استنادا إلى الدراسات والأبحاث التي تناولت الموضوع في مراحل أربعة، منبها إلى أن التحقيب لا ينفي تداخل المراحل فيما بينها، واستعمال المصطلحات الرئيسية من قبل متصوفة الإسلام قاطبة على

امتداد العصور من النشأة إلى الآن، ومؤكدا على ضرورة تصنيف منظومات مصطلحية تراعي هذا التحقيب، وترصد خاصيات التداخل في المصطلحات الصوفية:

- **المرحلة الأولى:** نشأت بنشوء حركة الزهد في الإسلام أوائلَ القرن الثاني الهجري، وكانت الألفاظ الصوفية في هذه المرحلة محدودة المفاهيم والمعاني والغايات تتمحور أساسا حول الزهد والحب الإلهي ومجاهدة النفس لتحقيق الخلق السامي.

- **المرحلة الثانية:** وتمتدّ من نهاية القرن الثالث إلى نهاية القرن السادس الهجري، وقد تميزت هذه الحقبة بظهور المفاهيم الإشراقية والوجودية، بحيث جمع الرواد بين التصوف الزهدي والتصوف الفلسفي.

- **المرحلة الثالثة:** تمتدّ من نهاية القرن السادس الهجري إلى حدود القرن التاسع الهجري، اتسمت هذه الحقبة أساسا بتوهّج الرصيد المعجمي الصوفي وتجدده بالدماء التي دفّقها ابن عربي والجيلي وابن الخطيب في شراييننه، وهي المرحلة التي شهدت التصنيف المعجمي في هذا المجال من قبل عبد الرزاق القاشاني، كما تميزت هذه المرحلة بإنشاء الأشكال والدوائر، وهي رسوم هندسية رمزية غزرت بكتابات ابن عربي، سبقه إليها الحلاج في المرحلة الثانية.

- **المرحلة الرابعة:** تتحدد زمنيا من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الهجري، عرف فيها المصطلح الصوفي ضحالة في الإبداع، فقلّت المصطلحات المولّدة، وكثر التكرار بالأخذ عن الأولياء والرواد الأوائل وشرح أقوالهم ومفاهيمهم.

وفي سياق الحديث عن تطور المصطلح الصوفي، استعرض الكاتب معظم المصنفات التي اعتنت بالمصطلحات الصوفية قديما وحديثا، ونبه أنه لا يتوخى في مؤلفه تقييم كل التجارب المعجمية في المجال الصوفي والكشف عن حسناتها ونواقصها، بل غايته تحديد مواطن الاشتراك ببعض المصطلحات الصوفية، ورصد السمات الدلالية المستحدثة فيها، وأكد أن كل تصنيف معجمي يتوخى الدقة مطالب بحصر مصادره زمنيا في القرن العاشر الهجري لأن كل التصانيف التي أعقبت هذه الحقبة تميزت بما أسماه طابع "النسخ" أو "المسخ". ولفت الكاتب انتباه الباحثين إلى أنماط من المنظومات المصطلحية الصوفية يراها جديرة بالبناء[5]، حرصا على

---

[5]- وهي على النحو التالي:

- معاجم صوفية أحادية اللغة (مرتبة ترتيبا ألفبائيا وأخرى مرتبة ترتيبا مفهوميا)

- معاجم صوفية ثنائية ومتعددة اللغات-

- موسوعات صوفية

- معاجم المشترك بين المصطلحات الصوفية ومصطلحات بقية العلوم والفنون

- معاجم الدخيل في الممارسات والمدونات الصوفية

صيانة تراثنا وعلى توفير مادة دسمة للدارسين التواقين إلى معالجة قضايا التصوف الإسلامي بعيدا عن التحيز أو التهافت وتهافت التهافت.

4- مصادر الاصطلاح الصوفي:

نبه الكاتب إلى ضرورة استقراء مجمل الكتابات الصوفية المدونة منذ المراحل الأولى إلى يومنا هذا، والتي تضم أنماطا كتابية منها ما يندرج ضمن "علم المعاملات" وتهم وصف الأحوال الداخلية للسلوكات الذاتية لأهل الطريق. ومنها ما يصنف في خانة "علم المكاشفات" ويتكلم عن الأذواق والحقائق العرفانية كنتائج للتجارب الصوفية المعيشية. ومنها ما يندرج ضمن الأدعية والأوراد، وما يندرج ضمن الكتابات التعليمية، إضافة إلى إملاءات الشيوخ وشطحاتهم، ورسائلهم المتبادلة بينهم.

وعرج الكاتب على رصد الدراسات الاستشراقية التي اهتمت بالمصطلح الصوفي خصوصا أعمال "ماسينيون" الذي يعد من أوائل الباحثين المحدثين الذين تنبّهوا إلى التداخل القائم بين الاصطلاح الصوفي ومصطلحات العلوم الإسلامية.

5- درجات الاصطلاحية بالألفاظ الصوفية:

من المسلم به لدى علماء المصطلح أن المصطلح لا يكتسب صفة الاصطلاحية إلا إذا توفر فيه شرطان أساسيان: الأحادية الدلالية واتفاق أهل الاختصاص، لكن الأمر على خلاف القاعدة في المصطلح الصوفي إذ يعد التعدد الدلالي سمة بارزة فيه تترجم تعدد التجارب السلوكية وتباينها من صوفي لآخر. فهل هذا ينفي صفة الاصطلاحية عن التسميات الصوفية؟

يؤكد الباحث على ضرورة التريث وعدم التسرع في نفي الاصطلاحية على التسميات الصوفية، وقد دفعته الرغبة في كشف خصوصيات التفرد الاصطلاحي لدى المتصوفة إلى النظر في علاقة الرمز بالإشارة والمثل و"الهيروغليف"، وعلاقة المصطلح الصوفي بالتأويل والانزياح.

وفي معرض دراسته لعلاقة الرمز بالإشارة في الخطاب الصوفي، كشف الباحث عن سلمية في درجات الرمزية تخضع لها الأقوال الصوفية[6]، يمكن ان نجسدها في الخطاطة التالية:

- المعاجم السياقية للمصطلحات الصوفية

- المعجم التاريخي للمصطلحات الصوفية.

[6]- دليل وجود هذه السلمية نص لابن عجيبة في"إيقاظ الهمم في شرح الحكم" ص135 جاء فيه أن الإشارة أرق من العبارة، والرمز (اللطيفة) أرق من الإشارة.

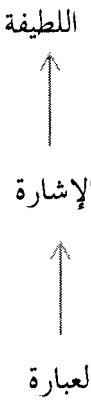

إلا أن هذه السلمية لا تسري على جميع حدود أهل الطريق، بل يؤكد الباحث على حصول ترادف بين مصطلحي "الرمز" و"الإشارة" في معظم النصوص الصوفية. ويرى الكاتب في سياق دراسته لعلاقة الرمز بالمثل أن غالبية علامات الصوفي تتحول إلى "هيروغليفات" [باصطلاح "ديدرو" (Dudrot)] تقوم في آن واحد بوظيفتي القول والمثل.

وفي سياق الحديث عن مواصفات الخطاب الصوفي أشار الباحث إلى أن انفتاح المصطلح الصوفي على عوالم دلالية متعددة جعلته يمتزج مع التأويل، واستعرض الباحث شروط التأويل الصوفي كما استخلصها الباحث 'محمد المصطفى عزام' من كتابات أهل الطريق[7]. وتوقف اليعبودي عند مكمن الانزياح في لغة المتصوفة والمرتبط تحديدا ببنية التعريف حيث يأخذ المصطلح الصوفي أبعادا معرفية تنفصم أحيانا عن أبعاده اللغوية المدونة بالمعجم العام.

الفصل الثاني:

خص الباحث الفصل الثاني من كتابه للحديث عن التداخل المصطلحي منبها إلى مركزية القرآن الكريم في نشأة العلوم الإسلامية، مما يحتم العودة إلى مفاهيمه عند دراسة مصطلحات هذه المعارف خصوصا مصطلحات التصوف.

وينطلق الكاتب من زاوية نظر تتصل بمفهوم المشترك اللفظي في اللغة العامة لتناول ظاهرة التداخل المصطلحي في محاولة لاستخلاص الفروق بين اللغة العامة واللغة الخاصة الممثلة هنا بلغة التصوف. وأشار الكاتب إلى مجموعة من المقاربات المنهجية المعتمدة في تفكيك اللغة الصوفية، لكنه يرى ضرورة اعتماد المقاربة المصطلحية النصية، معتبرا إياها وسيلة مثلى

[7] المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل، ص67

لرصد الأبعاد الإلهية والإنسانية في التجربة الصوفية، والوقوف على مظاهر الاشتراك الاصطلاحي الذي برر الكاتب حضوره في الخطاب الصوفي بالبحث عن الشرعية من خلال الالتجاء إلى الجهاز المفاهيمي للعلوم الإسلامية الشرعية. هذا التداخل جعل المصطلح الصوفي ليس مجرد عنوان يحيل على مرجع، بل يرتبط بمجال اشتغال متعدد الإحالات المرجعية مما يبرهن على أن اطراد حالات الاشتراك رهين بتعدد المجالات المعرفية الموظفة للصيغة المصطلحية الواحدة. ويرى الباحث أن المقاربة المصطلحية المعتمدة ملزمة باستلهام المبادئ الرئيسية لعلم المصطلح من قبيل أبعاد الوحدة المصطلحية عند "تيريزا كابري" (Teresa Cabré)، ومفهوم "الصوغ الجديد" (Reformulation) عند "إيمانويل كانسيساو" (E. Cançeçao) مبينا جدوى استثمارها في دراسة المصطلحات الصوفية. ويلح الكاتب على ضرورة التأكد من مدى تضمن تعريفات أقطاب الصوفية أو عدم تضمنها للمعنى المشترك أو ما أسماه " بالي" ب"حد التوحيد" أو "المفهوم الجامع" باصطلاح توارون (Thoiron). وبعد استعراضه لفوائد الدراسة المصطلحية للغة التصوف، خلص الباحث إلى أن التطبيق الشامل لهذه المقاربة سيمكن من الوقوف على مدى تأثر رواد التصوف بأفكار بقية المذاهب الإسلامية، وبنظريات الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين.

وتوقف الكاتب عند أهم الإشكالات التي تثيرها ظاهرة "الاشتراك" خصوصا ما يثيره تعريف المشترك عند العرب القدماء حيث تساءل الباحث: هل يتعلق الأمر بتضاد دلالي أو بتطور دلالي من العام إلى الخاص أو العكس؟ أو بتحول في الوظيفة النحوية؟ أو بمجرد تنوع لهجي مرده اختلاف لهجات القبائل؟ كما استعرض أهم إشكالات الظاهرة في التعاريف الغربية الحديثة التي حاولت تفسير التقارب بين دلالات اللفظ المشترك متسائلة هل ثمة معنى معمم وأشمل؟ وهل تشتق المعاني بعضها عن بعض؟ أم تتناسل عن معنى أصلي؟ وأشار الباحث أن ظاهرة الاشتراك على غرار ظاهرة الترادف قد عرفت تباينا في الآراء بين مؤيد لحضورها في لغة القرآن، وبين منكر لوقوعها.

وفي سياق الحديث عن المقاربات المنهجية لظاهرة الاشتراك، أبرز الكاتب أن أهم تحول مس ظاهرة الاشتراك هو الانتقال من دراستها بالاستناد إلى لسانيات العلامة إلى تحليلها باعتبار البعد النصي، واستعرض ما أسماه مزالق المقاربة 'السيمازيولوجية' القائمة على البعد المعجمي في دراستها لظاهرة الاشتراك، كما بين أن غالبية الدراسات التي عالجت الظاهرة لم تتمكن من استيعاب التوليد بالمشترك لأنها حصرته في قائمة الكلمات بدل وصفه لحظة تولده في الكلام.

انتقل الكاتب بعد ذلك لدراسة الاشتراك الاصطلاحي في لغة التصوف انطلاقا من نماذج محددة، (كنموذج "الجمع" و"القبض") تكشف استحداث سمات دلالية جديدة مشتقة من المعاني التي يحملها المصطلح سواء في استعماله اللغوي العام أو في مختلف استعمالاته

بحقول معرفية متعددة. وتوقف الكاتب عند ما اصطلح عليه مفهوم "الاشتراك المصطلحي المضاعف" باعتباره سمة بارزة في الخطاب الصوفي، وقد استعمل الكاتب هذا المصطلح للتعبير عن حقيقتين متقاربتين تخص الأولى اشتراك منظومتين فكريتين في استعمال المصطلح الواحد بدلالات متباينة لا تخفي الرابط المشترك بين الاستعمالين، وتخص الثانية وجود اشتراك ثان محايث للاشتراك الأول، يتمثل في اشتراك المتصوفة في استعمال المصطلح الواحد بمضامين متعددة ومتباينة أحيانا نتيجة تفرد كل صوفي بتجربته الروحية الخاصة. وقد استثمر الباحث "الاشتراك المصطلحي المضاعف" لكشف غنى الخطاب الصوفي بحالات تعدد المقاصد (polyacceptions). واستدل الكاتب على انتشار ظاهرة الاشتراك المصطلحي في الخطاب الصوفي بوقوعه في المصطلحات الرئيسية، ومثّل لذلك بمصطلح "صوفي" الذي يحيل على عنوان العلم، ومصطلح "ولي".

وأفرد الباحث ما تبقى من الفصل الثاني للحديث عن الاشتراك الحاصل بين التصوف وعلوم اللغة، وسطر جدولا يكشف من خلاله نسب الاشتراك الاصطلاحي بين المصطلحات الصوفية ومصطلحات علوم اللغة بمعاجم مصطلحات التصوف، ثم انتقل لرصد الاشتراك في استخدامات الحروف بين المعرفة اللغوية والمعرفة الصوفية، وأوضح أن الاهتمام بالحروف ورمزيتها لم يقتصر على المتصوفة بل شاركهم في ذلك مختلف الفرق والطوائف خصوصا الشيعة، إلا ان الثقافة العربية تفتقر إلى دراسات أكاديمية تكشف عن أبعاد توظيف الحروف وتجليات ذلك في المعارف الإسلامية بحقولها المتعددة. ويرجح الباحث أن رمزية الحروف في الخطاب الصوفي ليست أحادية البعد تكتفي فقط بتحقيق وظيفة الاستتار، بل هي مقترنة بالذات الإلهية وبأسرار الوجود والخلق. واستعرض الباحث اهتمام أقطاب التصوف بالحروف خصوصا ابن عربي الذي استثمر اجتهادات سابقيه كالشيخ التستري والحلاج وأبي القاسم بن قس وجابر بن حيان وابن مسرة. وقد عمد الشيخ الأكبر إلى الربط بين الحروف ومراتب الوجود والأسماء الإلهية معللا هذا الارتباط بتوافق عدد الأسماء الإلهية (دون احتساب الصفات) مع عدد مراتب الوجود وعدد حروف اللغة العربية، فكلها تنحصر في العدد 28، واستند في القول بتوقيفية ترتيب الحروف إلى الرأي القائل بأن اللغة توقيف من الله عز وجل. وقد تتبع الكاتب مختلف مظاهر اهتمام المتصوفة بالحروف سواء في حالة الإفراد أو التركيب ليكشف من خلاله عن أحد أهم مظاهر التداخل الاصطلاحي بين علم التصوف وعلوم اللغة، ثم استعرض نماذج من المصطلحات التي تكشف أوجه الاشتراك بين العلمين من قبيل: البدل، والحذف، والفصل والوصل، والمعرب والمبني، ليخلص إلى التأكيد على موقع الجهاز المفاهيمي لعلوم اللغة بالخطاب الصوفي، مذكرا بجهد الإمام القشيري صاحب "نحو القلوب الصغير" و"نحو القلوب الكبير" في رصد مظاهر التداخل بين العلمين، إلا انه جهد يرى الكاتب أنه لم يستوف جميع مظاهر

التداخل، مما حدا بالكاتب تكملة ما بدأه القشيري من رصد أوجه التداخل بين علوم اللغة وعلم التصوف في عمله الذي نعته ب"نحو القلوب الأكبر".

القسم الثاني:

وسم الكاتب هذا القسم ب"قسم القواميس"، وقد رصد فيه الباحث مظاهر التداخل المصطلحي القائم بين الخطاب الصوفي والخطاب اللساني من خلال قاموسين:

–القاموس الأول: رصد فيه الكاتب مواضع الاشتراك بين التصوف والنحو كما وردت في كتاب "نحو القلوب الكبير" للإمام القشيري. وقد حصر الباحث هذه المظاهر في جدول يضم حوالي ثمانين مصطلحا تشكل حالات الاشتراك في الاصطلاح وفي الأحكام والأحوال، وقسم الجدول إلى ثلاث خانات تضم الأولى الصفحة التي ورد فيها المصطلح في كتاب القشيري، وتضم الثانية المصطلح في نحو اللغة، بينما تضم الخانة الثالثة المصطلح في نحو الإشارة.

القاموس الثاني: وسمه الكاتب ب "نحو القلوب الأكبر" تمييزا له عن كتابي القشيري "نحو القلوب الصغير" و"نحو القلوب الكبير"، ونعته أيضا ب 'قاموس المشترك المصطلحي بين اللغة والتصوف'، وهو قاموس رصد فيه الكاتب حالات الاشتراك في الاصطلاح بين مجالي علوم اللغة والتصوف. وقد دون فيه الكاتب زهاء ثلاثمائة حالة من حالات التداخل المصطلحي بين الخطابين، ونبّه الكاتب إلى أن هذا التفاوت الحاصل بين جهده وجهد القشيري لا يعود إلى تقصير الإمام في ضبط مواقع التداخل بين المنظومتين بقدر ما يعود بالدرجة الأساس إلى التطور الحاصل في المصطلح الصوفي طوال الفترة الفاصلة بين تأليف كتاب القشيري (بالقرن الخامس الهجري) وتصنيف موسوعة الكسنزان في علوم التصوف (بالقرن الخامس عشر الهجري) التي استند إليها الكاتب في جرد بعض التعريفات، كما يعود إلى اكتفاء الإمام القشيري بالوقوف على حالات التداخل بين المصطلح الصوفي والمصطلح النحوي والإشارة إلى تشابه الخطابين في أصولهما الفكرية، بينما شمل الجرد الذي جمعه الباحث في "قاموس النحو الأكبر" مختلف حالات التداخل بين المصطلح الصوفي ومصطلحات علوم اللغة، وتشمل النحو والبلاغة والعروض والأصوات والصرف والقراءة.

وقد رتب الباحث مداخل القاموس ترتيبا ألفبائيا. واعتمد الباحث في عرضه لمواد القاموس سُلمية تقوم على ذكر المعنى اللغوي للمصطلح المشترك أولا مستندا في أغلب المداخل إلى المعجم العربي الأساسي الصادر عن المنظمة العربية للثقافة والعلوم (تونس 2003)، ثم يورد المعنى الاصطلاحي كما هو في علوم اللغة، وقد استمد معظم التعاريف الاصطلاحية من قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية لإميل يعقوب (1987)، ومعجم علوم اللغة عن الأئمة لسليمان الأشقر (1995). وأخيرا يستعرض التعريف أو التعاريف الصوفية للمداخل المصطلحية

مستندا في ذلك إلى كتابات أئمة الصوفية والمعاجم المهتمة بالمصطلح الصوفي خاصة مؤلفات عبد الرزاق القاشاني، و'موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليها أهل التصوف والعرفان'. وإلى جانب المصطلح يورد الكاتب ضمائمه في حال وجودها كما هو الشأن مع المدخل (الاسم) الذي ذكر من جملة ضمائمه (أسماء الأسماء . الأسماء المشتقة . أسماء الأفعال . أسماء الذات . الأسماء الذاتية . أسماء الصفات).

وختم الباحث كتابه بثلاثة ملاحق على شكل جداول، سجل في الجدول الأول مظاهر تداخل المصطلح الصوفي بمعجم القرآن الكريم كما رصدها العلامة 'عبد العزيز بن عبد الله'، ودوّنها بالعدد الرابع لمجلة اللسان العربي، وسجل في الجدول الثاني أمثلة للمصطلحات المشتركة بين الخطاب الصوفي والحديث النبوي الشريف، أخذها من كتاب الباحث 'مصطفى عزام': "المصطلح الصوفي"، وأورد الكاتب جدولا ثالثا خصصه لأمثلة التداخل الاصطلاحي بين الخطاب الصوفي والتفسير الصحابي والتابعي .

التعليق:

تناول الباحث خالد اليعبودي في كتابه واحدة من أهم قضايا المصطلح العربي، وهي ظاهرة التداخل المصطلحي، التي أضحت منذ نشأة العلوم الإسلامية حقيقة ثابتة في علوم اللغة وعلوم الشريعة، ومرد ذلك إلى أسباب موضوعية تتلخص أساسا في وحدة المنطلق والغاية؛ فقد كان النص القرآني المنزل بلسان عربي مبين منطلق العلماء باختلاف تخصصاتهم المعرفية، فقد "أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء.. فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد، فالفقيه منه يستنبط الأحكام، ويستخرج منه الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطإ القول وصوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام.."[8]. وكما كان القرآن منطلقا فقد كانت خدمته مقصدا، وتيسير فهمه، وكشف أسراره ووجوه إعجازه غاية تقاسمها العلماء بمختلف مواقعهم المعرفية، فكان ذلك مدعاة للتداخل بين هذه العلوم التي نشأت متزامنة متداخلة يرفد بعضها من بعض، فكان التداخل المصطلحي علامة بارزة على التأثير والتأثر بين العلوم الإسلامية. ولم يكن التصوف نشازا، بل يسري عليه ما يسري على غيره من العلوم بالرغم من تفرد التجربة الصوفية بطابعها الروحي.

لقد حاول الباحث جاهدا كشف مواطن التداخل بين علم التصوف وعلوم اللغة، وإذ نثمن هذا الجهد المعجمي الذي لاشك سيُسهم في فهم أسرار التجربة الصوفية، فلا ضير أن نبدي بعض الملاحظات ذات الطابع المنهجي في مجملها:

[8] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1 ص2.

-أفرد الباحث مدخل الكتاب للحديث عن مميزات المصطلح الصوفي، ولم يوف القاموس حقه في مقدمة الكتاب، إذ اكتفى بالإشارة إليه في نهاية المدخل، والإشارة إلى مصادره بشكل مقتضب، مع الإشارة إلى احتفاظه بالتعاريف كما هي في مصادرها. صحيح أن القسم الأول من الكتاب (ويضمّ الفصلين الأول والثاني) شكل ما يشبه الإطار النظري الذي استند إليه الباحث في قاموسه (نحو القلوب الأكبر)، لكن حبذا لو تفضل الباحث في مقدمة الكتاب ببسط الإطار المنهجي المعتمد في عمله المعجمي بشكل جلي، وتبرير اختياره في ما يتعلق بنمط الترتيب المعتمد، ودوافع استناده إلى مصادر ومراجع دون غيرها سواء في التعاريف الصوفية أو اللغوية المعتمدة، وما إلى ذلك من الأمور المنهجية التي يحتاجها القارئ ليكون على بينة من أمره وهو يتصفح القاموس. لقدأشار الكاتب في متن الفصل الأول إلى عدد من المعطيات المنهجية كمصادر المصطلح الصوفي، والدراسة المصطلحية التي فضل اعتمادها في أي دراسة تروم الدقة في مجال التصوف، لكن 'الدراسة المصطلحية' كما هو معلوم تحيل لدى المتلقي المغربي على منهج علمي معروف بخطواته ومراحله المنهجية الصارمة كما حددها واضعه الشاهد البوشيخي، لذا كان من الأفضل أن يوضح الكاتب في مقدمة الكتاب المنهج المعتمد في الدراسة تفاديا لأي لبس خصوصا وأن الباحث عودنا على مثل هذا الوضوح المنهجي في دراسات سابقة.

-اعتمد الباحث في ترتيب مداخل قاموسه على الترتيب الألفبائي، وهو اختيار لم يبرره خصوصا مع وجود أنماط أخرى من الترتيب تبدو مناسبة لمثل هذا العمل المعجمي، ونخص هنا بالذكر الترتيب المفهومي الذي يربط المصطلح بشبكة المصطلحات التي تنتمي معه إلى نفس الحقل المفهومي، ويمنع من تشتيت المنظومات الاصطلاحية إلى أشلاء متفرقة[9]، كما يمكن المتلقي من تشكيل تصور متكامل حول المداخل المصطلحية من خلال اكتشاف العلائق المنطقية الرابطة بين شبكة المفاهيم، ويكشف عن مدى تضمن تعاريف الصوفية أو عدم تضمنها للمعنى المشترك، ولعل هذا يعطي القارئ فرصة أكبر لإدراك كيفية توظيف المصطلحات اللغوية لدى رجال التصوف، ويكشف عن التطور الدلالي الطارئ عليها، والعلاقات المفهومية الناجمة عن ذلك حين انتقالها من علوم اللغة إلى مجال التصوف. فكما أن هذه المصطلحات مترابطة مفهوميا في علوم اللغة، فلا شك أنها كذلك في حقل التصوف، واعتماد الترتيب المفهومي قد يساعد المتلقي على إدراك هذه العلاقات المفهومية مما يعينه على كشف مزيد من الأسرار الخفية الكامنة في لغة المتصوفة. لكن قد يشفع للكاتب اختياره كون الغاية من العمل

---

[9] أشار اليعبودي في سياق حديثه عن الخطوات الأساسية لبناء معجم لساني متعدد اللغات في كتابه "آليات توليد المصطلح وبناء المعاجم اللسانية" إلى ضرورة اعتماد ترتيب مفهومي للمداخل المصطلحية لضمان تواصل أفضل بين النسقين الاشتقاقي والدلالي للمفهوم، وتفادي الوقوع في "الفوضى المنظمة" التي يسببها الترتيب الألفبائي، والتي تشتت المنظومات الاصطلاحية إلى أشلاء متفرقة يصعب معها الاهتداء بسهولة إلى المدخل المبتغى. ص 259 . 260. ولسنا ندري ما الذي دعاه ليحيد عن هذا الاختيار في عمله المعجمي هذا.

القاموسي هو رصد ظاهرة التداخل المصطلحي من خلال استعراض المصطلحات المشتركة بين الحقلين المعرفيين. كما أن الترتيب الألفبائي ييسر على المتلقي استعمال القاموس.

–قد تكون الغاية نفسها هي التي دفعت الكاتب إلى الاختزال عند إيراده لتعريفات المصطلحات، فالناظر في المعجم يلاحظ أن الكاتب قد مال للاختزال في تعريف مداخل القاموس؛ فهو يكتفي بإيراد المعنى اللغوي للمصطلح، ثم يتبعه بتعريف للمصطلح مستمد من أحد المعاجم المختصة بمصطلحات علوم اللغة[10]، ثم يذكر بعد ذلك تعريفه كما هو في بعض معاجم المصطلحات الصوفية، ويترك للقارئ مهمة عقد الصلة بين الاستعمالين الصوفي واللغوي للمصطلح المشترك، واكتشاف التطور الدلالي الطارئ على المصطلحات خلال رحلتها من عالم اللغة إلى عالم التصوف. فالباحث لم تكن مهمته على ما يبدو رصد التطور الدلالي للمصطلحات بقدر ما كان شغله الشاغل هو رصد مواطن التداخل بين المجالين المعرفيين لذلك جاء جهده القاموسي مختزلا، ومقتصرا على ما يخدم الغاية من إنجازه.

ختاما يمكن القول: إن دراسة ظاهرة التداخل في المصطلحات الصوفية ما هي إلا قضية من بين قضايا أخرى حاول من خلالها الباحث إبراز سمات المصطلح الصوفي، وسبر أغوار الخطاب في تجربة أهل الطريق. ولعل هذه الدراسة تفتح آفاقا واعدة للبحث في الموضوع، أشار الباحث في ثنايا الكتاب إلى بعض منها نجملها في ما يلي:

1. اصطلاحية الأسماء الصوفية: فقد أشار الكاتب في الفصل الأول من الكتاب إلى افتقار المصطلح الصوفي لشرطي 'الاتفاق بين أهل الفن'، و'الأحادية الدلالية' مما يطرح التساؤل حول اصطلاحية أسماء الصوفية. والحقيقة أن هذين الشرطين، وخصوصا الأحادية الدلالية، ليس مجمعا عليهما من قبل مختلف المدارس المصطلحية. فإذا كانت المقاربة المنطقية التي يتزعمها "فوستر" ومن نهج نهجه تؤسس المفهوم على الوصف الفلسفي المتعالي عن السياق اللساني والدلالي الجاري في مستوى الإنجاز اللغوي الخاص، وتحتم بالتالي تخصيص المفهوم الواحد بالمصطلح الواحد، فإن المقاربة اللسانية النصية تضيف إلى المقاربة المفهومية البعد النصي الذي يتكون فيه السياق الاستعمالي للمصطلح، أي البعد الوظائفي الذي يضطلع به المصطلح في تكوين بنية النص العلمية والمفهومية، ويتناسب المصطلح مع مفهومه داخل النسق النصي. وتبعا لهذا الأمر قامت هذه المقاربة على الجمع بين المعالجة المفهومية والمعالجة اللسانية للمصطلح، فأصبحت الظواهر اللسانية من تركيب ومعجم ودلالة ذات أهمية في تحليل الوحدة المصطلحية. وتستند هذه المقاربة إلى منطق السياق النصي باعتبار أن المصطلح مادة لسانية تحمل مفهوما لا يتواجد إلا من خلال سياقات النص الملائمة لوجوده المفهومي. وهكذا تتقلص دوائر الغموض المفهومي التي تنشأ عن الاشتراك اللفظي بواسطة تحديد سياقات الاستعمالات

[10] لم يبرر الكاتب اختياره لمعاجم لغوية عامة وخاصة دون غيرها كما فعل في المعاجم الصوفية.

النصية، فتمكن من ضبط العلاقات التركيبية والمفهومية، وتفسير كيفية انتظامها في النص[11]. ولعل اعتماد مثل هذه المقاربات غير التقليدية قد يبرز درجة اصطلاحية الأسماء الصوفية، ويكشف الفوارق الدلالية بين استعمالاتها.

2. الحاجة إلى منظومات مصطلحية تسبر أغوار التجربة الصوفية الفردية منها والجماعية حرصا على صيانة تراثنا، وعلى توفير مادة دسمة للدارسين التواقين إلى معالجة قضايا التصوف الإسلامي بعيدا عن التحيز أو التهافت وتهافت التهافت[12]. ومن المنظومات المصطلحية التي يراها الكاتب جديرة بالبناء:

- ✓ معاجم أحادية اللغة (مرتبة ترتيبا ألفبائيا وأخرى مفهوميا)
- ✓ معاجم صوفية ثنائية ومتعددة اللغة
- ✓ موسوعات صوفية
- ✓ معاجم المشترك بين المصطلحات الصوفية ومصطلحات بقية العلوم والفنون
- ✓ معاجم الدخيل في الممارسات والمدونات الصوفية
- ✓ المعاجم السياقية للمصطلحات الصوفية
- ✓ المعجم التاريخي للمصطلح الصوفي.

3. الحاجة إلى دراسات أكاديمية تكشف عن أبعاد توظيف الحروف وتجليات ذلك في المعارف الإسلامية بحقولها المعرفية، فقد أبرز الباحث أن الحروف باعتبارها مكونا أساسيا من مكونات اللغة العربية كانت محط اهتمام مختلف العلوم الإسلامية والطوائف المذهبية مما أكسبها رمزية خاصة، لكننا لا نصادف دراسات تشفي الغليل في رصد أبعاد هذه الظاهرة المثيرة التي تستحق الدراسة والتحليل[13].

---

[11] خليفة الموساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، ص 48 . 49.

[12] ص: 26 من متن الكتاب.

[13] ص: 58 . 59.